

عنوان المقال: عبد الله بن أبي مدين: من عدل  
بسيط إلى رجل من أعيان الدولة المرينية

الكاتب: د/ المحجوب قدار  
جامعة محمد بن عبد الله  
المملكة المغربية

البريد الإلكتروني: elmahjoubkeddar@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/02/16 تاريخ القبول: 2019/03/25 تاريخ النشر: 2019/04/30

عبد الله بن أبي مدين: من عدل بسيط إلى رجل من أعيان الدولة المرينية

الملخص بالعربية:

لعل من بين الأمور التي تبعث على استنهاض الهمم وتقوية الإرادة الاطلاع على سير أولئك الذين تمكنوا من الوصول إلى أعلى مراتب السلطة انطلاقاً من أسفل اعتماداً على مقوماتهم الذاتية والموضوعية، سيما إذا تعلق الأمر بأشخاص ينتمون إلى تاريخنا المشترك. ويسعى هذا المقال إلى إمطة اللثام عن مسار إحدى تلك الشخصيات التي استطاعت أن تمكن لنفسها من بلوغ المكانة العالية والرتبة السامية في الدولة المرينية، ويتعلق الأمر بعبد الله بن أبي مدين الذي ينحدر من أسرة كتامية بسيطة، استطاع بطموحه وجديته وكفاءته تحقيق طموحه الذي لطالما راوده، فسعى إليه بكل عزيمة مستفيداً من رصيده الأسري ومن الظرفية التاريخية للمغرب الأقصى وقتئذ. فقد تمكن من تقلد الكتابة على عهد أربع سلاطين، الأكثر من ذلك أنه تمكن أن يكسب ثقة بعض السلاطين المرينيين الذي مكنوه من تدبير الدولة والجمع بين الكتابة والحجابه. لكن نهايته لم تكن سعيدة إذ راح ضحية الدسائس التي كانت تحاك داخل البلاط السلطاني فقتل بوشاية كاذبة من اليهودي ابن رقاصة. والحق يقال أن تتبعنا لسيرة ابن أبي مدين قد مكنتنا ليس فقط من معرفة مساره الفريد، بل أيضاً أتاحت لنا فرصة الانفتاح على قضايا مهمة من التاريخ المغربي خلال العصر الوسيط عامة والتاريخ المريني على وجه الخصوص ومنها ما تعلق بالوجود اليهودي في السلطة المرينية، والصراعات التي تكون الخطط، وكذا بعض شروط وقواعد الوصول إلى دوائر القرار السياسي.

## كلمات مفتاحية:

عبد الله بن أبي مدين، الدولة المرينية، السلطة، الكتابة، العصر الوسيط

**Abstract :**

Perhaps one of the things that inspires the motivation and strengthen the will is to know the progress of those who have managed to reach the highest levels of authority from the bottom depending on their personal and objective competencies, especially when it comes to people belonging to our common history. This article seeks to uncover the path of one of those figures who managed to reach the highest status and position in the Marinian state, and it is about Abdullah IbnAbiMadian who came from a simple family. Thanks to his ambition , seriousness and competence , he managed to achieve his ambitions and objectives which has long been seen, He sought his ambition with all his determination, benefiting from his family balance and the historical situation of the Far Morocco at that time.He managed also to work in the writing at the period of four sultans . Moreover, he managed to gain the trust of some of the Marinite Sultans who enabled him to manage the state and to combine between writing and writing.However, his end was not happy as he was victimized by the intrigues that had been woven into the royal court. He was killed because of a false accusation of IbnRuqassa, a Jewish person.. Honestly speaking, IbnAbiMadian biography has enabled us not only to know his unique path, but also it gives us an opportunity to open up to important issues of Moroccan history during the Middle Ages in general and the Marinian history in particular, and concerning the Jewish presence in the Marinian authority and conflicts that made plans, as well as certain conditions and rules of access to the political decision-making circles.

**Keywords:** Abdullah bin AbiMadin, Marinian state, power, writing, middle age

مقدمة

يزخر التاريخ المغربي خلال العصر الوسيط بالكثير من الشخصيات التي طار ذكرها في الآفاق وبلغت من المجد مكانة وعزا، البعض منها ورث المكانة من أسلافه ولم يكن له دور في صناعتها والبعض الآخر استطاع أن يمكن لنفسه اعتمادا على قدراته وطموحه، وبالتالي ضمان موقع له ضمن الكبار. ولا شك أن الكشف عن هذه الجوانب من تاريخ الأفراد تدخل ضمن مهمات التاريخ البيوغرافي الذي يركز على دراسة وتتبع حياة ومسارات الأفراد خاصة أولئك الفاعلين والمؤثرين في توجيه الأحداث. وهو يمثل أيضا نوعا من التاريخ المجهرى الذي يتقاطع بدوره مع التاريخ الاجتماعي.

ويمثل عبد الله بن أبي مدين الذي عاش خلال القرن السادس ومطلع القرن السابع الهجري إحدى الشخصيات التي سطع نجمها خلال الفترة المرينية من خلال المكانة التي حازها والخطط التي تقلدها، مما يجعل منه إحدى الشخصيات الجديرة بالدراسة والتقصي خاصة إذا علمنا أنه كان في بداية مشواره صاحب مهنة حرة بسيطة في مكناسة. وشكل بذلك إحدى النماذج الفريدة التي جسدت عملية الانتقال من الظل إلى دائرة الضوء والبروز السياسي، ومن فرد من عامة الناس إلى أحد وجوه النخبة المجتمعية المرينية.

ولا شك أن الوقوف على تاريخ مثل هذه الشخصيات في إطار التاريخ البيوغرافي سيكون مناسبة للوقوف على تجربتهم ومدى تأثيرها على المجرى العام للتطورات العامة التي عرفتھا المرحلة التي عاشوا فيها، دون أن ننسى أن دراسة مسار شخصية عبد الله بن أبي مدين سيسمح لنا أيضا بالانفتاح على التاريخ المريني وبعض قضاياها.

أولا: الأصول الاجتماعية لعبد الله بن أبي مدين

لم يكن عبد الله بن أبي مدين ابن مدينة فاس التي شهدت على الجزء الباذخ من حياته، بل ينتمي في أصوله الجغرافية والقبلية إلى بني أبي عثمان إحدى قبائل كتامة البربرية<sup>1</sup>، ويضيف ابن الأحمر أنه من بني عثمان من زاوية بجاية من البربر، وأنهم نزلوا مصمودة بجبال

وزان قبل أن يستوطن أسلافه قصر عبد الكريم الكتامي<sup>2</sup>. لكن مولد ابن أبي مدين كان بكتامة<sup>3</sup>.

وبالعودة إلى الأصول الاجتماعية التي ينحدر منها بن أبي مدين نجد أنه لم يكن منقطع الصلة بالعلم والجاه، والشاهد عندنا أن جده أبو شعيب بن مخلوف من بني عثمان كان منتحلا للدين ومشتهرا به<sup>4</sup>. مما يعكس الجذور العلمية لبنت أبي مدين.

أما عن علاقة هذا البيت بالجاه، فقد تأتي له من جدهم السابق الذكر، إذ صادف وجوده بكتامة حملة المرينيين لتوحيد المغرب بعد أن خبا نجم الموحدين. ولما كان المرينيون يفتقدون للشرعية الدينية وكان تعطشهم لمن يملئ عليهم هذا الفراغ، فإنهم لم يدخروا جهدا في صحبة كل من رأوا لديه بسطة في العلم والدين. وهكذا فقد تحيز "بنو عبد الحق لأبي شعيب هذا فيمن تحيزوه من أهل الدين"<sup>5</sup>. فاتخذوه إمام صلاتهم، وكان السلطان يعقوب بن عبد الحق الأشد تعلقا به، فكان ذلك سببا في علو قدر هذا البيت في الدولة المرينية، وحظي بنوه عبد الله ومحمد المعروف بالحاج وأبو القاسم بالجاه في الدولة وبين الناس وربوا في قصر كتامة<sup>6</sup>.

وهكذا كانت معرفة جده بالدين سببا في رفعة قدره، وبروز أبنائه، ومن حسن حظ بيت ابن أبي مدين أن الدولة التي اعتلت عرش البلاد وقتئذ كانت أحوج إليهم من حاجة هذا البيت إليها. أو لنقل أن مصلحة الطرفين قد التقت في حصول كل طرف على ما يفتقده، حصول بيت بني أبي مدين على الجاه والرفعة، وتحصيل الدولة الناشئة لبعض جوانب الشرعية الدينية.

ومع أن بيت بني أبي مدين أصبح من البيوت التي طار ذكرها وشاعت مكانتها في الدولة المرينية، إلا أن بوابة بروز هذا البيت في دواليب الحكم والسياسة في العصر المريني لم تبدأ بشكل رسمي إلا مع عبد الله بن أبي مدين، مما يجعلنا نتساءل عن الدواعي التي جعلت منه الأكثر تميزا من أبناء بيت أبي مدين، كما يدفعا هذا الأمر دفعا لاستقصاء وتتبع المسار الوظيفي والاستثنائي لهذه الشخصية المغربية الفذة خلال الفترة المرينية.

ثانيا: مسار عبد الله بن أبي مدين نحو السلطة

الواقع أن مسار عبد الله بن أبي مدين لم يكن مسارا عاديا، وهذا الحكم لا يقتصر على تقديري الخاص فقط بل هو الرأي الذي شاطرت فيه عددا من الذين كتبوا عنه ونقلوا لنا أخباره. ويبقى تتبع أخباره وإعادة بناء الطريق الذي سار فيه فرصة سانحة لفتح نافذة على حياته الخاصة سيما فيما يتعلق بالجانب الوظيفي والسياسي فيها، وهو ما سيمكننا أيضا من القيام بإطلاقات على تاريخ المغرب زمن الدولة المرينية بين الفينة والأخرى، الشيء الذي سينقلنا تارة من تاريخ الفرد إلى تاريخ المجتمع وتارة أخرى من تاريخ المجتمع إلى تاريخ الفرد في إطار جدلية مستمرة بين الأفراد والقوى الاجتماعية.

تناولي مسار عبد بن الله أبي مدين يتجاوز مستوى السرد إلى محاولة رسم طريق إحدى التجارب الفريدة التي انتقل فيها الشخص من مجرد إنسان عادي من عامة الناس إلى رجل من النخبة والأعيان، من صاحب مهنة حرة بسيطة إلى أحد المتحكمين في دواليب الحكم والسلطة، ولعل هذا ما يعطي معنى للإرادة البشرية في صنع التميز والوصول أعلى المراتب في حالة إيمان الشخص بالهدف وتوفره على الرغبة الحقيقية في بلوغه.

وإذا كان الرصيد الأسري قد خدم أهداف عبد الله بن أبي مدين في تسلق السلم الوظيفي والوصول إلى أبعد مما كان يحلم به أسلافه من تقريب سلاطين بني مرين لهم. إلا أن ذلك لم يكن كافيا ليحقق ما حققه لولا أنه حاز ما لم يحزه أبناء هذا البيت الآخرون من مميزات شخصية وطموحات ذاتية ورؤى بعيدة.

ولعل أهم ما يميز هذه الشخصية طموحها الكبير للرقى بالذات إلى أبعد حدود الوصول بها إلى أقصى ما يمكن اعتمادا على الوسائل الذاتية والموضوعية. فكانت أول خطوة قامت بها هو مغادرة بيت العائلة ومسقط الرأس بكتامة إلى مكناسة الزيتون. فبالرغم من العيش الرغيد الذي كان يعيش في كنفه ببلده وموطن أجداده، إلا أن طموحه جعله يتخلى عن كل ذلك ممنيا نفسه بما هو أكثر من ذلك. وهكذا استغل علمه في الدين فاشتغل في الفقه وبرز عدلا بسماط شهود حاضرة مكناسة الزيتون<sup>7</sup>. ولا شك أن هدفه من تغيير كهذا لم يكن

بقصد الوظيفة التي تقلدها، وإنما لإتاحة الفرصة لنفسه لشحذ مواهبه وتعميق معارفه والاحتكاك بمن هم أعلى منه قدرا وأكثر منه منزلة، سيما وأن المدينة التي اختار النزول بها لم تكن بالمدينة الصغيرة وإنما هي حاضرة مكناسة المعروفة بالمغرب الأقصى؛ وفعلا فقد نجح في مخالطة الرؤساء وولاة الأمر كما يخبرنا بذلك ابن الأحمر 8.

طموحه ذلك لم يكن عبد الله بن أبي مدين ليخفيه على الأقل عن أصحابه، فقد كان يحدث به أصحابه الفقهاء، وإن كان البعض منهم يتهم عليه فإن صاحبنا كان واعيا بالكلام الذي كان يقوله ومصمما على تحقيقه. ولأهمية هذا الأمر في إبراز طموح هذا الرجل نسوق ما قاله ابن الأحمر في هذا الصدد، إذ كان الرجل "يقول لأصحابه: لا بد لي أن أخذ السلطان وأدبر الدولة وأستولي على الأمر، فخرج يوما بمكناسة إلى نزهة مع لمة من أصحابه الفقهاء، فلما أخذ بهم الحديث قال لهم على قوله لا بد لي من أن أدبر الدولة فليشته كل واحد منكم ما يريد ويطلبه مني لأعطيه إياه، فطلب كل واحد منهم ما في أمه، فطلب ابن زغبوش<sup>9</sup> قضاء بلاد مكناسة فمكته منه لما مكته الله تعالى من تدبير الدولة، وأعطى لأصحابه ما سألوا منه في النزهة بخارج مكناسة قبل معرفته بالملوك"<sup>10</sup>. ومهما كانت صحة هذه الرواية التي نقلها لنا صاحب بيوتات فاس الكبرى إلا أن المسار الذي سيسلكه بن أبي مدين فيما بعد يؤكد ما أفصح به لأصحابه وإصراره على تحقيق طموحه كاملا.

ولا شك أن الرجل موضوع الدراسة لم يختر النزول بمكناسة اعتباطا، لأنه كان بإمكانه أن ينتقل إلى فاس موطن السلطنة منذ البداية لكنه لم يفعل، إيمانا منه بأن الذهاب إلى فاس منذ البداية بدون زاد كاف معرفيا وسياسيا سيعرض طموحه للفشل. لذلك نجده لما جمع ما يكفي من خبرة وما يلزمه من معارف حول محيط السلطان، من خلال مخالطته لرؤساء وأعيان وحكام المدينة انتقل مباشرة إلى حضرة فاس عاصمة ملك المرينيين<sup>11</sup>، واشتغل بها موثقا بسماط شهودها<sup>12</sup>.

ولما كان مشروع الرجل واضحا في ذهنه ومخططه باد أمامه فإنه لم يجد صعوبة في إيجاد الطريقة المناسبة للدخول لدائرة السلطة، وهكذا فبمجرد ما ارتحل لفاس تعلق بالفقيه الكاتب الحاجب صاحب العلامة محمد بن محمد بن سعيد الكلبي المعروف بالكناني صاحب

يعقوب بن عبد الحق<sup>13</sup>. ولا شك أنه أبان له عن طول باعه وعمق تجربته فضلا عن سابقة فضل جده ومكانته لدى بني عبد الحق، كل ذلك جعل الحاجب الكناني يختصه بنفسه ليعلم أولاده القرآن مع أولاد الوزير عمر بن السعود بن خرباش الحشبي<sup>14</sup>. وإن كان ابن الأحمر يطالعنا في كتابه "نثر الجمان" برواية أخرى مخالفة مفادها أن أصل قرب ابن أبي مدين من دار السلطان ترجع إلى الوزير أبي علي عمر بن السعود بن خرباش الحشبي الذي طلب من قاضي مكناسة كاتباً لنفسه يكون حسن الحظ فعرفه بعبد الله بن أبي مدين فاستكتبه<sup>15</sup>.

ومهما يكن فالأكيد أن الرجل سلك طريق الترقى بدء من الأسفل، ذلك أنه لما أحس بأن منزلته ارتفعت لدى الحاجب الكناني طلب منه أن يدنيه من الخدمة بدار السلطان يعقوب بن عبد الحق، فقدمه يكتب علف الخيل وجعل له على ذلك مرتب تلك الخطة وهو ثلاثون دينارا فضية كل شهر<sup>16</sup>. وفي هذا الصدد يقدم ابن الأحمر نفسه شاهداً على ذلك، فقد بلغه خبره من صاحبه الفقيه العدل محمد بن عبد الله الفشتالي، فأمر هذا الأخير هي حفيده الحاجب الكناني، فضلا عن كون ابن الأحمر من بين المؤرخين الذين عمروا فاس طويلاً مما جعله مطلعاً على أحوالها وسياسية ملوكها المرينيين وقتئذ. ولعل هذا ما جعله يخص مدينة فاس بكتاب خاص عن بيوتاتها الكبرى<sup>17</sup>.

ومن البديهي أن خطة كتابة علف الخيل لم تكن لترضي آمال بن أبي مدين لذلك لم يتوان عن طلب المزيد، إذ طلب من الحاجب أن يرقيه لما هو أشرف منها، فقدمه لكتابة البطائق في حضرة يعقوب بن عبد الحق<sup>18</sup>. وقد استمر على ذلك الحال إلى أن تقلد الكتابة حمو بن أبي الطيب الكناني، ففرط في الكتابة وضيع الخدمة وانشغل بالصيد والفروسية. فوجدها ابن أبي مدين فرصة لإظهار براعته وإخلاصه في الخدمة "فلزم عبد الله بن أبي مدين القعود بمشور السلطان لكتب الصكوك من أول النهار إلى آخره فشكره السلطان على ذلك"<sup>19</sup>. وهكذا عزل السلطان حمو المذكور وعين مكانه بن أبي مدين. ولم يتوقف أمر الرجل عند هذا الحد بل أصبح يختص بالعلامة والحجابه وتديير الدولة<sup>20</sup>. بل جعل إليه حسابان الخراج والضرب على أيدي العمال وتنفيذ الأوامر بالقبض والبسط فيهم واستخلصه لمنجاة

الخلوات والإفضاء بات الصدور فوقف ببابه الإشراف من الخاصة والقبيل والولد وسودوه وخطبوا نائله"21.

وتجدر الإشارة إلى أنه كان يقوم معه في خطة الكتابة كتاب آخرون، إذ تشير النصوص التاريخية إلى أن العلامة السلطانية على الكتاب في الدولة المرينية لم تكن محصورة في كاتب واحد، بل كان كل منهم يضع العلامة بخطه على كتابه إذا أكمله، لما السلطان كان يثق فيه جميعاً22. لكن بعد العمل الذي قام به أحمد الملياني باستغلاله العلامة وتعدد الكتاب للثأر من مشيخة المصامدة الذين كانوا سببا في اعتقال عمه وهلاكه، أقدم السلطان يوسف المريني على حصرها فيمن يثق فيهم، فجعلها في عبد الله بن أبي مدين "خالصته المضطلع بأمور مملكته فاخترت من بعده"23. واستمر حال الرجل الطموح على هذا المنوال لمدة غير يسيرة، "فبلغ الغاية القصوى في دول يعقوب بن عبد الحق ودولة ابنه يوسف ودولة أبي ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف ودولة أخيه سليمان"24.

ومع أن خطة الكتابة من بين الخطط التي يحتاج صاحبها إلى قدر واف من الكفاءة وهو ما توفر في عبد الله بن أبي مدين، إلا أن ابن خلدون يرى أن ترقية هذا الأخير وبلوغه ذلك القدر في الدولة المرينية إنما كان بسبب جده الذي "عظم في الدولة قدره وانبسط بين الناس جاه ولده وأقاربه وحاشيته"، واستمر ذلك الجاه في عهد السلطان يوسف الذي أستخلصهم لخدمته25. لكن هذا لا يعني تجريد ابن أبي مدين من أي دور فيما حققه. صحيح أن جده كان قد مهد له الطريق نحو القمة، لكن طموحه وتميزه عن باقي إخوته وباقي أبناء بيته هو الذي أهله لتلك المرتبة، وقد لمح ابن خلدون إلى ذلك في إشارة عابرة سواء على مستوى تقديمه أو ترقيته من رتبة إلى أخرى26.

وهكذا يكون عبد الله بن أبي مدين قد حقق مراده وبلغ الطموح الذي حدث به أصحابه، فأصبح ذا شأن كبير في الدولة المرينية، الأكثر من ذلك أنه استطاع تعبيد الطريق لأبناء هذا البيت لبلوغ أسى الخطط في دواليب السلطة المرينية وقتئذ، لكن مع ذلك فمعظم الذين بلغوا المرتبة من أبناء هذا البيت لم يستطيعوا بلوغ مكانة عبد الله، وحسبنا أن أبا القاسم بن أبي مدين الذي تقلد منصب الكتابة بعد أبيه "كان غفلا خلوا من الآداب فكان



يرجع إلى عبد المهيمن في قراءة الكتب وإصلاحها وإنشائها حتى عرف السلطان ذلك فاقتصر عليه وجعل وضع العلامة إليه"27، في المقابل بلغ البعض منهم مراتب مهمة في الدولة فأبو المجد بن أبي عبد الله بن أبي مدين كاتب السلطان أبي الحسن كان ضمن سفارته إلى ملك مصر ابن السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة 745هـ/28. وفيما يلي قائمة بأبناء بيت بني أبي مدين الذين تقلدوا الكتابة في الدولة المرينية:

الجدول رقم 1: قائمة بالأفراد الذين تولوا خطة الكتابة لدى الدولة المرينية من بيت بني أبي

## مدين

اسم الكاتب	السلطان	الأصل الجغرافي	شهادة كفاءته	ملاحظات	المصدر
عبد الله بن أبي مدين العثماني	يعقوب بن عبد الحق يوسف بن عبد الحق عامر بن عبد الله أبو الربيع سليمان بن عبد الله	قصر كتامة	"وكان هو الذي نجم في خدمة الملوك من بني مرين قلده الحجابة ورياسة الكتاب"		ابن الأحمر نثير الجمان، ص 255-256.
الحاج محمد بن أبي مدين	أبو سعيد عثمان بن يعقوب				ابن الأحمر، روضة النسرين، ص 34-35.

أخوه أبو القاسم بن أبي مدين	أبو سعيد عثمان بن يعقوب			ابن الأحمر، روضـة النسرین، ص 35-34
أخوهما محمد بن أبي مدين المعروف بالقصري	أبو سعيد عثمان بن يعقوب			ابن الأحمر، روضـة النسرین، ص 35-34.
محمد بن عبد الله بن أبي مدين	أبو الحسن علي عثمان			ابن الأحمر، روضـة النسرین، ص35-36.
محمد بن الحاج محمد بن أبي مدين	أبو الحسن	كان شاعرا اريبيا وطالبا لبيا		ابن الأحمر، روضـة النسرین، ص 35-36. ابن الأحمر، نثير الجمان، ص 262.
محمد بن أبي القاسم بن مدين	أبو عنان			ابن الأحمر، روضـة النسرین، ص 37-40.
شعيب بن	أبو الحسن	"كان ممن	فقيه كاتب	ابن الأحمر،

<p>نثير الجمان، ص 264.</p>	<p>كان أبوه محمد كاتب العلامة للأبي سعيد عثمان امتحنه أبو الحسن وأدخله السجن سنين طويلة</p>	<p>أصفق الاجماع على براعة نظمه وتوقع في الاجماع إجادة فهمه كثير الارتياح إلى الآداب بمعرفة الأنساب عظيم الثروة عميم الخطوة وكان في الدار السلطانية رفيع الجاه"</p>			<p>محمد بن أبي مدين شعيب بن مخلف العثماني</p>
<p>ابن الأحمر، نثير الجمان، ص 266- 267.</p>	<p>نال جاهها عظيمالدى أمير المؤمنين المتوكل الذي امتحنه وأدخله السجن وتوفي به مقتولا سنة 752 هـ</p>	<p>" كان من أهل البراعة ومن أولي النظم اللباب ... وفي براعة الخط بعيد الشأو"</p>		<p>المتوكل على الله أبي عنان فارس</p>	<p>ابنه الفقيه حمزة بن شعيب بن محمد بن أبي مدين شعيب</p>

والواضح من خلال الجدول أعلاه أن حضور بيت بن أبي مدين في الدولة المرينية استمر طوال عمر الدولة خاصة في خطة الكتابة إلي أصبح هذا البيت يختص بها، فمنذ بلوغ عبد الله بن أبي مدين منصب الكتابة لدى الخليفة يعقوب بن عبد الحق بعد مسيرة طويلة من الترقية في المناصب، وهو يحرص على توريث المنصب والجاه لآل بيته، حيث تداول أفراد هذا البيت على الكتابة في عهد السلاطين المرينيين، بدءاً بعبد الله بن أبي مدين الذي تداول على منصب الكتابة على عهد أربعة سلاطين، واستمر حضور بيت بني مدين إلى حدود عهد أبي عنان فارس بن علي بتولي محمد بن أبي القاسم بن أبي مدين<sup>29</sup>. وبذلك حافظ هذا البيت على حضور مستمر طيلة الحكم المريني في منصب الكتابة، مما يفسر دور القرابة في إنتاج النخبة، بالإضافة إلى عامل الكفاءة، فقد عرف هذا البيت زيادة على الكتابة بالفقه والثروة<sup>30</sup>. مما يعني أن الفقه والكفاءة ساعدته في بلوغ السلطة، بينما مكنته السلطة من تحصيل الثروة.

ثالثاً: صراع عبد الله بن أبي مدين حول السلطة ونكبته

كانت خطة الكتابة شأنها شأن باقي خطط الدولة محل تنافس كبير في الدولة المرينية، خفي أحياناً وجلي أحياناً أخرى بين الأفراد المحيطين بالسلطان، وأبرز مثال على ذلك ما جرى بين عبد الله بن أبي مدين واليهودي أبي خزر بن إبراهيم اليهودي<sup>31</sup>. فلما كان عبد الله قد جمع بين الحجابة والكتابة وبلغ الحظوة الكبيرة لدى بني مرين أصبح من الطبيعي أن يكون محط حسد كبير ومنافسة حادة من طرف المقربين من دائرة السلطة. وقد كانت تلك المنافسة هي التي أودت بحياة عبد الله بن أبي مدين على يد السلطان أبي الربيع بوشاية من اليهودي أبي خزر.

واللافت للانتباه أن اليهود قد بلغوا مراتب عالية في الدولة المرينية خاصة المعاهدين منهم، ومثلت أسرة اليهودي بني رقاصة أبرز نموذج على ذلك، إذ بلغت المرتبة السامية في دواليب السلطة والحكم المريني، فقد استعمل الأمير يوسف خليفة بن رقاصة قهرماناً لداره على عادة الأمراء، فحصلت له الحظوة، واستمر حاله بعد تقلد يوسف بن يعقوب أعباء الحكم، حتى "عظمت رياسته وعلا كعبه في الدولة وتلقى الخاصة الأوامر منه"<sup>32</sup>. لكن ما لبث

السلطان أن سطا بهم واعتقلهم بعد أن امتحنهم، وقتلهم جميعا إلا خليفة الأصغر احتقارا لشأنه<sup>33</sup>.

لكن أسرة آل رقاصة تمكنت من العودة من جديد إلى البلاط السلطاني الذي خبرته لمدة طويلة عن طريق خطة الحجابة، إذ يخبرنا ابن الأحمر أن خليفة الأصغر الذي نجا من النكبة التي لحقت بأسرته<sup>34</sup> تمكن من العودة بقوة إلى كسب ثقة السلطان سليمان وإزاحة خصومه من الساحة. ذلك أن أبا خرز خليفة بن إبراهيم بن رقاصة اليهودي سعى بكل جهده لبلوغ منصب الحجابة، فعمل على مزاحمة عبد الله بن أبي مدين حتى استطاع تنحيته والحلول مكانه في تجسيد واضح للصراع على المناصب. "وبلغ أبو خرز اليهودي عند سليمان الخطوة التي لم يبلغها عنده أحد بحيث يقصر عنها الوصف، حتى أن جميع الجيش ينادونه بسيدي أبي خرز من بني مرين وغيرهم<sup>35</sup>. ولعل هذه المكانة هي التي جعلت عبد الله بن أبي مدين يشاور أبا خرز في الصغيرة والكبيرة، كما أن اليهودي لم ينس دور أبي مدين في التنكيل بأسرته، وهو ما قاده للعمل على تدبير قتله والثأر منه، وقد تمكن من ذلك عبر براءة مزورة. تزعم بأن عبد الله بن أبي مدين في علاقة مع إحدى جواري السلطان، مما جعل هذا الأخير يقدم على قتله<sup>36</sup>. وإن كان ابن خلدون يشير إلى قصة أخرى في قضية مقتل عبد الله، تفيد بأن خليفة الأصغر لما جعل غايته السعاية بعبد الله بن أبي مدين "دس إلى السلطان أن عبد الله بن أبي مدين يعرض باتهام السلطان في ابنته وأن صدره وعر بذلك، وأنه مترصد بص بالدولة"<sup>37</sup>، ولعل هذا ما جعل السلطان يعجل بقتله ودفع عائلته وذلك في صبيحة زفاف ابنته<sup>38</sup>. لكن ما لبث السلطان أن اكتشف زور ابن رقاصة ففتك به وبأهله وذويه من اليهود المتصدين للخدمة<sup>39</sup>. فاكتتب من بعده أخ ابن مدين الحاج الفقيه بن أبي مدين<sup>40</sup>.

والأكيد أن مقتل ابن مدين قد شكل خسارة كبيرة للدولة، وأول من أحسن بذلك هو السلطان، إذ أخذه الندم على فعلته تلك، لما علم بزور وكذب اليهودي؛ فقد كان عبد الله المدبر لدولة السلطان سليمان<sup>41</sup>. كما أن الوزير سليمان بن يركين ذهب نفسه عليه وعلى مكانته في الدولة حسرة وأسفا<sup>42</sup>.

وبالرجوع إلى الحضور اليهودي في الدولة المرينية، فبالرغم من بلوغهم مرتبة عليا في الدولة إلا أنهم ضلوا ضمن لائحة المغضوب عليهم والمنبوذين في المجتمع المغربي في تلك الفترة

على الأقل على المستوى الديني والشعبي<sup>43</sup>، فلطالما لقي تقليدهم للمراتب السامية في الدولة انتقادات كثيرة من قبل العامة والخاصة، وتكفيينا شاهدا على ذلك إشارة ابن خلدون الذي عبر عن ارتياحه حال سطوة السلطان بهم بقوله "وأزيل منها – أي الدولة - معرفة رياستهم"<sup>44</sup>.

### خاتمة

خلاصة القول إن عبد الله بن أبي مدين أفلح في تحقيق ذاته والوصول إلى دوائر القرار السياسي في الدولة المرينية، فانتقل بذلك من واحد من عامة الناس إلى أحد أفراد النخبة المجتمعية وقتئذ في مسار فريد يمكن وصفه بالاستثنائي. فالرصيد الأسري والطموح الشخصي والكفاءة المهنية كلها عوامل أهلته لبلوغ تلك المرتبة بعيدا عن عنصر العصبية الذي حاسما في اختراق دائرة السلطة التي غالبا ما كانت تتسم بالطابع المغلق خلال العصر الوسيط عموما.

فمكانة جده التي اكتسبها من الجانب الديني مهدت له الطريق نحو القمة، لكن المسار نحو القمة لم يكن سهلا عليه لولا أنه أدرك قواعد الوصول إلى القرب من السلطة والدخول في فلكها، بينما مثلت الكفاءة التي اشتغل على شحذها وتعميقها جانبا مهما في تيسير مهمة الترقية من رتبة إلى أخرى مسجلا بذلك تفوقه على منافسيه.

لكن مادام أن البقاء في القمة أصعب من الوصول إليها فإن عبد الله بن أبي مدين قد أوصله طموحه إلى حتفه، وذلك في خضم الصراع على الخطط الذي لطالما طبع الدوايب الخفية للسلطة. لكنه في المقابل مكن لبنينه وذويه من الجاه والعيش في كنف السلطة المرينية. وعموما فتتبعنا لمسيرة هذا الرجل في إطار التاريخ البيوغرافي قد مكنتنا ليس فقط من معرفة مساره عن قرب وإعادة بناءه وفق ما توفر من معطيات، ولكنها وفرت لنا الفرصة أيضا للتطلع إلى بعض قضايا التاريخ المغربي خلال العصر الوسيط عموما والتاريخ المريني على وجه الخصوص ومنها تلك المرتبطة بالدسائس التي كانت تحاك داخل الحرم السلطاني، وكذا الدور اليهودي في السلطة المرينية فضلا عن النكبة التي كانت غالبا ما تلحق بالمحيطين بفلك السلطة.

## الهوامش:

- 1- ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمان بن أبي بكر الحضرمي، تاريخ ابن خلدون المسعى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس، خليل شحادة، مراجعة، سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000، ج. 7، ص 315. الزركلي خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط. 15، ماي 2002، ج. 4، ص 92.
- 2- ابن الأحمر أبو الوليد إسماعيل بن يوسف الغرناطي الأندلسي (ت 807 هـ أو 810 هـ)، بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص 56.
- 3- ابن الأحمر، أعلام المغرب والأندلس وهو كتاب نثر الجمان في شعر من نظمنا وإياه الزمان؛ حققه وقدم له محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. 2، 1987م، ص 256.
- 4- ابن خلدون، العبر ... م. س، ج. 7، ص 315.
- 5- المصدر نفسه، ص 315.
- 6- المصدر نفسه، ص 315.
- 7- ابن الأحمر، بيوتات ... م. س، ص 56.
- 8- المصدر نفسه، ص 56.
- 9- عرف بيت بني زغبوش بمكناسة الزيتون ولهم حارة تعرف باسمهم حارة بني زغبوش. ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط. 1، 2008، ج. 1، ص 83.
- 10- ابن الأحمر، بيوتات ... م. س، ص 56.
- 11- المصدر نفسه، ص 57.
- 12- ابن الأحمر، نثر الجمان ... م. س، ص 256.
- 13- ابن الأحمر، بيوتات ... م. س، ص 57.
- 14- المصدر نفسه، ص 57.
- 15- ابن الأحمر، نثر الجمان ... م. س، ص 256.
- 16- ابن الأحمر، بيوتات ... م. س، ص 57. ابن القاضي أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973، ج. 2، ص 438.
- 17- ابن الأحمر، بيوتات ... م. س، ص 56-64.

- 18- المصدر نفسه، ص 58.
- 19- المصدر نفسه، ص 58.
- 20- المصدر نفسه، ص 58.
- 21- ابن خلدون، العبر...، م. س، ج. 7، ص 315.
- 22- المصدر نفسه، ص 306.
- 23- المصدر نفسه، ص 306.
- 24- ابن الأحمر، بيوتات...، م. س، ص 58.
- 25- ابن خلدون، العبر...، م. س، ج. 7، ص 315.
- 26- المصدر نفسه، ص 315.
- 27- المصدر نفسه، ص 329.
- 28- المقرئ شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني، النفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988، ج. 4، ص 396.
- 29- ابن الأحمر، روضة النسر في دولة بني مرين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط. 2، 1991م، ص 27-40. ابن الأحمر، بيوتات...، م. س، ص 56-64. المقرئ، النفع...، م. س، ج. 4، ص 396.
- 30- ابن الأحمر، بيوتات...، م. س، ص 56.
- 31- المصدر نفسه، ص 58-60.
- 32- ابن خلدون، العبر...، م. س، ج. 7، ص 307.
- 33- المصدر نفسه، ص 307.
- 34- ابن خلدون، العبر...، م. س، ج. 7، ص 307.
- 35- ابن الأحمر، بيوتات...، م. س، ص 58.
- 36- المصدر نفسه، ص 58-59.
- 37- ابن خلدون، العبر...، م. س، ج. 7، ص 316.
- 38- المصدر نفسه، ص 316.
- 39- ابن خلدون، العبر...، م. س، ج. 7، ص 316. ابن القاض، جدوة...، م. س، ج. 2، ص 438-439. ابن الأحمر، روضة...، م. س، ص 28.



- 40- ابن أبي زرع أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص 393.
- 41- ابن أبي زرع، الأنيس...، م.س، ص 393.
- 42- ابن خلدون، العبر...، م.س، ج.7، ص 316.
- 43- وثائق في أحكام قضاء أهل الذمة في الأندلس، مستخرجة من مخطوطة الأحكام الكبرى للقاضي أبي عيسى بن سهل، دراسة وتحقيق محمد عبد الوهاب خلاق، المركز العربي للدول والاعلام، القاهرة، ص 77.
- 44- ابن خلدون، العبر...، م.س، ج.7، ص 307.